**جامعة وهران 2**

**كلية العلوم الاجتماعية**

**قسم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا**

**شعبة: علم الاجتماع**

**وحدة: التغير الاجتماعي**

**أ.د عمار يزلي**

**الدرس 2**

**فلسفة التغير: الإنسان، الفضاء والمجتمع**

**1**/ **الإنسان والتغير**

ارتبط تاريخيا ميدان الفلسفة بالإنسان، باعتباره كائنا مفكرا وباعتباره صاحب الطرح الأكبر أو السؤال الفلسفي الكبير: من أنا؟ من أين جئت؟ وإلى أين أذهب؟.. هذه العناصر الوجودية الانطولوجية لدى الإنسان، محل التساؤلات الأولية، شكل التغير والتحول والتبدل والتعاقب لغزا لدى الإنسان الأول وإلى اليوم..فالإنسان، كان يرى ويسمع ويتحسس ويلمس ويتذوق ويشم عناصر الطبيعة التي حوله ويرى فيها الاختلاف والتغير والتبدل من مكان لمكان ومن زمن إلى زمن. كان يرى تعاقب الليل النهار وحركة الشمس والقمر والكواكب، ويرى اختلاف الفصول ومواسم الأمطار والرعود ثم مواسم الحرارة وبدأ يتساءل عن سر هذا التبدل والتنوع في الزمن والمكان. كان عليه أن يرى أن التقدم في العمر أو الحوادث الطبيعة قد تنهي حياة الإنسان والحيوان، لكنه لا يفهم السبب ولا أين ذهبت هذه الكائنات وخاصة أفراد الأسرة أو القبيلة أو المجموعة التي ينتمي إليها وتربطهم بها علاقة حميمة. كان يحزن لفراق أحد المقربين لكنه لا يقوى على فهم معنى الموت وهذا التغير الفجائي والذهاب الفجائي.. لكنه كان يرى أن الإنسان متى تقدم في العمر صار أضعف ويتغير جسده ولون شعره ويتبدل سلوكه وتتحول قوته من قوة إلى ضعف..ومنه بدأ يفكر في أن التغير يتحكم فيه عنصر الزمن..لكن الزمن هو نفسه مشكلة فلسفية، لهذا بدأ يبحث في عناصر الكون والطبيعة عن طريقة لعد الوقت والزمن..فكانت الأيام والأسابيع والشهور والسنوات.. بمختلف مسمياتها لدى مختلف الأقوام والحضارات.

التغير مرتبط إذن بالإنسان[[1]](#footnote-2)، فالإنسان الفرد هو جزء من هذا التغير الشامل الأبدي، فهو معرض للتغير الشكلي والباطني: يتغير بحسب قانون النمو والكبر والمرض والموت، ويتغير داخليا بناء على الحالات النفسية التي يكون عليها من لحظة لأخرى: فقد ينتقل الإنسان في نصف ثانية من الحزن إلى الفرح أو العكس ومن حالة الصحة إلى المرض ومن حالة الانبساط إلى الكآبة..وهذا التغير المزاجي الداخلي النفسي، يطبعه أيضا تغير فسيولوجي قد لا نلاحظه بالعين المجرد، لكن التغيرات التي تحدث في جسم الإنسان دماغا وعضلات وأوعية وشرايين وأعصاب، تدل حتما على تبدل وتغير في الأحوال والأمزجة، على اعتبار أن هناك تفاعل وثيق بين ما يسمى بالجسد الفيزيقي والجسد الأثيري، أو "الروح" أو "النفس" أو "العقل الباطني" لدى الفلاسفة.

فإذا كان الإنسان الفرد، هو محور التغير العاقل، فهذا ينطبق على الإنسان/الجماعة، أي على الجماعة الإنسانية مهما كانت بدء من الأسرة والقبيلة والمجموعة السكانية الحضرية والوطنية والإقليمية والدولية. فالكل يتغير ويتفاعل مع الفرد القريب منه مما يجعل التفاعل عالميا بحسب التواصل والتعامل والتقارب أو درجة التباعد. التغير يتحكم في كل شيء فينا وحولنا وبيننا، مما يجعل الإنسان الباحث في شأن التغير والتغيير هو نفسه عرضة للتغير والتبدل، وهذا ما يطرح في منهجية العلوم الإنسانية من مسألة "الذاتية" و"الموضوعية" على اعتبار تداخل الذات مع الموضع في بعض المواضع التي يكون فيها الباحث طرفا في المعادلة.

**2/ التغير والفضاء الطبيعي/الاجتماعي**

الإنسان الفرد، لا يمكنه أن يعيش بمفرده، فهو كائن اجتماعي وطبيعي أن يبحث عن فضاء طبيعية واجتماعي يعيش فيه: أرض، وأسرة أو قبيلة...فهو يرى كفرد أنه لا قوة له على التغلب على الصعاب التي تحيط به في محاولة سيطرته على الطبيعة أو على أقرانه من أراد آخرين داخل فضاءه الاجتماعي أو خارجه، أي مع قبيلة أو مجموعة سكانية أخرى غريمة أو منافسة على الفضاء المعيشي: فضاء الصيد، الرعي، الزراعة..وعليه، فهو يبحث دوما على التحالف والتكاثف طلبا للعون والمساعدة في السيطرة على الآخر، طبيعة كانت أم بشرا. هذا التفاعل بين الأفراد ضد الطبيعة يمثل أولى التحالفات المجتمعية، كون أن محاولة السيطرة على الطبيعة والتغلب عليها وتغييرها لصالح الإنسان، خاصة بعد الانتقال من طور الجني إلى طور الصيد ثم الزراعة.

التغير الذي يمس الطبيعة من تلقاء نفسها، باعتبار التغير قانون يسري على كل الأشياء وكل الكائنات مهما كانت متناهية في الصغر أو الكبر، يبدو وكأنه يتداخل مع كل التغيرات من داخل الإنسان ومن حوله، وعليه، فهو أيضا يؤثر في الطبيعة ليغرها، كما هي تغيره فيزيقيا ونفسيا. هذا التفاعل بين الإنسان فردا كان أم جماعة وبين الوسط أو الفضاء الطبيعي والاجتماعي، هو مجال البحوث في التغير الاجتماعي في العلوم الاجتماعية أساسا وفي كل ميادين العلوم الإنسانية.

هناك إذن ثالوث يتحكم نسبيا في كل التغيرات التي ندرسها: الإنسان الفرد، الإنسان/الجماعة، والفضاء الاجتماعي والطبيعي. هذا الأخير نعني به الفضاء الطبيعي الذي يعيش فيه الإنسان ويتعايش ويتفاعل معه، والذي يشمله الفضاء العام الذي يحيط بكوكبنا وأبعد من ذلك، على اعتبار أن الكل يؤثر ويتأثر بالكل مهما كان حجمه وبعده عن الإنسان وعن محيطه الطبيعي المباشر.

3/ التغير داخل الفضاء الاجتماعي

عندما نتحدث ضمن لغة العلوم الاجتماعية عن "الفضاء" (L’espace ; space)، فإننا بذلك نعني "الفضاء الاجتماعي الإنساني" أو "الوسط والبيئة الاجتماعية التي يعيش فيا وفي كنفها الإنسان والمجموعة الإنسانية المحددة" [[2]](#footnote-3)،بما في ذلك الفضاء العمراني، الفضاء البيئي، الزراعي، الصناعي، المهني...أي، ذلك الحيز الذي تحدث فيه تلك التفاعلات بين الإنسان الفرد والإنسان/ الجماعة فيما بينهم وفيما بينهم وبين الوسط المحيط بهم من عمران وأدوات عمل وعلاقات عمل وآلات وبنية تحتية.... "يؤكد هذا على أن ديناميكية الفرد والجماعة وتعاملها مع الطبيعة أو "صراعها" ضدها، إنما يولد حالة من التناغم والتأقلم فيما بعد، يجعل من الفرد والجماعة التي ينتمي إليها ينطبع بهذا الطابع الاقتصادي، الذي يتحول مع الوقت إلى ممارسة يومية، وإذن طبيعة ثقافية، فهوياتية في الأخير، عندما يرتبط الفرد بالأرض في حالة "الاستقرار" أو يرتبط بحالة "التنقل والترحال" ويصبح الفرد يتمثل هذا الشعور وهذا الإحساس حتى في حالة الاستقرار الفردي" [[3]](#footnote-4).

من هذا المنطلق، يمكن ملاحظة أشكال التغير والتحول والتبدلات والانتقال داخل نسق اجتماعي معين، بالعودة إلى ديناميكية العلاقات الجدلية الفاعلة في التغيير سلبا أو إيجابا، تقدما ـأو تأخرا، بحسب التقييم الإنساني المعياري للتقدم والتخلف..فالتغيرات التي يحدثها التصنيع في مجتمع فلاحي قروي معين، يبدو واضحا فيه دور الإنسان والآلات معا في إحداث النقلة أو الوثبة أو الطفرة أو التغير البطيء أو السريع من نموذج ونسق اقتصادي معين إلى نوع آخر مختلف، على النقيض أو هجين يخمل في طياته مخلفات التأثير الزمني التاريخي. ليس هذا فحسب، فالتغيرات الاقتصادية والعمرانية، من شأنها أن تؤثر في النموذج الثقافي الاستهلاكي، الفكري والممارساتي وحتى الديني والمعتقدي، مما يجعل التغيير الإنساني والتغير الطبيعي ملازمة أبدية لحياة الإنسان في بيئته ووسطه وفضائه الذي يتعايش معه من أجل تحويله وتغييره لما يناسب مصلحته الإنسانية والبشرية.

1. ينظر:عمار يزلي: القبيلة، الفضاء والمعتقد. بحث في تشكل عناصر الهوية المغاربية. دار لالة صفية للنشر والتوزيع. وهران 2016. ص ص: 15. 17 [↑](#footnote-ref-2)
2. يمكن العودة إلى : عمار يزلي: الإنسان والعمارة. مؤلف جماعي. الرابطة الولائية للفكر والإبداع. الوادي. 2013 ص ص: 13 . 14 وأيضا :عمار يزلي: القبيلة، الفضاء والمعتقد. ص ص: 14. 36 [↑](#footnote-ref-3)
3. ينظر نفس المرجع. ص: 42 [↑](#footnote-ref-4)